ابن سينا

خالد

باثاره وخصاله

للأمام الاكبر والفيلسوف الأعظم

خليفة ابن سينا

سماحة الشيخ عبد الكريم الزنجاني

مطبعة الغري

النجف

بقلم الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

بمناسبة الاحتفال بالذكرى الألفيـــة لرئيس الفلاسفة « ابن سينا » في عاصمة العراق { بغداد } تحت رعاية حضرة صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد الأمير عبدالاله المعظم في ٢٠ آذار - ١٩٥٢ الموافق ٢٣ / ٦ / ١٣٧١ هـ قصد جمع غفير من كبار الاساتذة مكتبة الأمام الأكبر ، والفيلسوف الأعظم ، سماحة الشيخ عبد الكريم الزنجاني الشهير في الشرق والغرب بأنه خليفة ابن سينا في العصر الحاضر ، والتمسوا باصرار بليغ كلمة من سماحته عن ابن سينا ، عسى أن يستفيض منهـا فلاسفة العالم عامة ، وأعضاء المهرجان التاريخي الكرام خاصة ، ورجال العلم كافة .

ولكن سماحته إعتذر بضيق المجال ، وتزاحم الأشغال ، وتراكم أعماله لمهمات المسلمين ولمصالح الانسانية ، وقال : أن تسجيل أبرز آثار الرئيس ابن سينا يستوجب تأليف عدة كتب

ولما زاد الحاح الاساتذة الكرام لم يبق لسماحته سوى الاجابة فأملى عليهم ما أثبتناه في الصفحات الآتية :

الناشر

مرتضى الزنجاني

إستمعت الى محاضرة الأمام الزنجاني في الفلسفة ، فظننت أن ابن سينا حي يخطب . | الدكتور طه حسين |

الأمام الأكبر ، والفيلسوف الأعظم ، سماحة

(الشيخ عبد الكريم الزنجاني)

: يرفع بيده لواء الفكرة ، وفي رأسه علم ابن سينا ، وابن رشد . والغزالي . والأفغاني . وعبده . وفي قلبه رفق المسيح (ع) وفي صدره عزيمة أحمد « ص »

---

* عن مجلة (المكشوف) بيروت : ٢٦ كانون الاول ١٩٣٨ *

السنة الرابعة : العدد * ١٨٠ *

المطلب الأول :

ابن سينا

« مبتكر العلم الحق ، وواضع الفلسفة الاسلامية
والشرقية ، والحاكم على ارسطاطاليس »

صرح رئيس الفلاسفة - ابن سينا - في كتابه - الحكمة المشرقية - بأنه قد وصله من غير اليونانيين علوم ، وحكمة ، وفلسفة .

ويؤيده أن المورخ الاغريقي الشهير - يوجين لا إرس - حدث في كتابه - حياة الفلاسفة عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة -

ويؤيده أيضا أن التاريخ قرر أن الاغريق أوفدوا إلى مصر - فيثاغورس - و - افلاطون - ومن رجال تشريعهم - ليكورغوس - و - صولون - فأقاموا بها ما شاءوا ، ثم عادوا إلى بلادهم مزودين بما شاء الله من العلم ، والحكمة ، والفلسفة .

وثبت أيضاً تأثر - فيثاغورس - من الفلسفة الشرقية في رحلته إلى الهند وإلى مصر .

وقد عثر الباحثون الأثريون على كلمات العدالة ، والفضيلة ، والنفس ، والحياة الاخرى ، وخلود الروح ، في الشرق

قبل تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها .

وقرر الباحثون في الانسان وخواصه ، وإختلاف طوائفه ، أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على ان بعض النظريات الأغريقية لا يمكن ان تكون من اصل اغريقي ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

وصرح الرئيس ابن سينا - في ضمن ترجمة حياته بقلمه - بأنه لما حاول تحصيل العلوم ابتدأ بدراسة علم الفقه عند فقيه عصره - اسماعيل الزاهد - وجـد واجتهد حتى ألف طرق المطالبة والمناظرة ووجوه الاعتراض - استنباط الاحكام الشرعية - على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، حتى أصبح من أجود الفقهاء السالكين الصالحين .

ولما سمع من ابيه عبدالله الذي كان مسلماً شيعياً جعفريا اسماعيليا حين مذاكرته مع اخيه ذكر الفلسفة ، والهندسة ، وحساب الهند ، أحس برغبته الشديدة إلى فهمها ومعرفتها فاشتغل بدراستها حسب توجيه أبيه وساعده التوفيق حتى فرغ من علم المنطق ، والعلوم الرياضية ، والفلسفتين الطبيعية والالهية ، والطب وسائر العلوم اليونانية قبل أن يتخطى على الحياة ثمانية عشر ربيعاً

وحينما نجح ابن سينا في علاج مرض سلطان بخارى - نوح ابن منصور - إستأذن من السلطان في دخول دار كتبه فدخلها ووجد فيها من أنواع الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية

وفنون العلوم الشرقية من الهندية ، والفرسية وغيرها ما اوجب اندهاشه ، وشاهد فيها من الكتب النادرة ما لم يقع اسمه إلى كثير من أعلام الناس قط ، وظفر بفوائدها ، وعرف مراتب الرجال بآرائهم وأفكارهم .

ووقتئذ أحس الرئيس بجدارته بتدوين { العلم الحق } والفلسفة الصحيحة ، وبمحاكمة فلاسفة اليونان ، والحكم عليهم ، وتفنيد آرائهم ، وعبر عن اتباع المشائين اليونانين بالخشب المسندة ، ووصفهم بأنهم لا يشكون في آراء - ارسطاطاليس - وما اورثهم اليونانيون ويشكون في النهار الواضح ، ونعتهم بالعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين والظانين ان الله لم يهد إلا اياهم ولم ينل رحمته سواهم ، وأخذ الرئيس فى استدراك أخطاء - ارسطاطاليس - مع اعترافه بفضله وأن صنيعه أقصى ما كان يمكن فى عصره .

ثم ابتدأ الرئيس بمحاكمة أرسطو وأتباعه المشائين وقضى لهم وعليهم واثقاً بصحة قضائه العدل وحكمه بالحق ومصرحا بأنه لم يحاول الحكم عليهم أول أمره بل تريث طويلا لكي لا يبقى مجال للشك في صحة حكمه ، ولم يتربع على منصة الحكم والقضاء الا بعد أن أحاط فى ريعان حداثته بجميع ما أورثه اليونان من العلوم والحكمة بدقه لا مزيد عليها ، وذكر الرئيس : أنه كان في أول أمره يتعصب لهم ويغطي كثيراً

من خطاياهم بأغطية التغافل ، ولم يجاهر بمخالفتهم إلا في الشيء الذي لم يمكن الصبر عليه حتى طالت المدة ونضج فكره وأحاط بعلوم غـير اليونانيين أيضاً وانتهى أمره إلى حيث وصف الرئيس نفسه بما نصه :

« وإذا وجدنا صورتنا هذه فبالحري أن نثق بأكثر ما قضيناه وحكمنا به واستدركناه ولا سيما في الاشياء التي هي الأغراض الكبرى والغايات القصوى التي اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات ، ولما كانت الصورة والقضية على هذه الجملة أحببنا ان نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق - يعني اسس الفلسفه الاسلامية - الذي استنبطه من نظر كثيراً وفكر مليأ ولم يكن من جودة الحدس بعيداً - يقصد نفسه - وماجمعنا هذا الكتاب إلا لنظهره على أنفسنا ، اعني الذين يقومون مقام أنفسنا ، واما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد اعطينا في كتاب { الشفاء } ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم . اه

ووصف ابن سينا كتابه - الحكمة المشرقية - بما نصه

فقد نزعت الهمة بنا إلى ان نجمع كلاماً فيما إختلف أهل البحث فيه لا نلتفت فيه الفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلف ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب الفناها للعاميين من المتفلسفه المشغوفين بالمشائين . . . الخ .

ثم تصدى الرئيس ابن سينا المحاكمة بين المشائين وسائر الحكماء والفلاسفة في كتابه « الانصاف » ونتيجة هذه المحاكمة ظاهرة في كتابه « الاشارات » الذي هو مظهر التحول الفكري والتطور الواضح في فلسفة ابن سينا ، فترى فيه مطالب إشراقية وبرهانية عالية تلائم حكمة افلاطون تجلى فيها نور الفلسفة الشرقية ، ولمعان عناصر الفلسفة الاسلامية ، سيما النمط الأخير منه .

فمن الغريب كل الغرابة ما أشتهر عند الغربيين من ان العالم مدين بحرية الفكر لليونان ، وأن فضل العرب لم يكن إلا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها إلى أوربا ، وأن المسلمين لا نصيب لهم من العلم الا ترجمة كلام اليونانيين وتقليدهم في أهوائهم ، وأن العلوم الاسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان ، بل على أوهام اليونان .

وأغرب من ذلك أن تاريخ الفلسفة العام الغربي انتقل من العصرين الاغريقي ، والمسيحي الى العصر الحديث قافزاً من القرن الرابع الميلادي الى القرن السابع عشر ولم يعبأ بالعصر الاسلامي ، وأجمع مؤرخو الفلسفة على الاغضاء عن الفلسفة الاسلامية رغم كونها حلقة بارزة غالية من سلسة التفكير الانساني العام ، والحياة العقلية البشرية ، ترتبط بتاريخ ارتقاء العقل البشري ارتباطاً وثيقاً ، وتفتح امام الذهن الانساني

آفاقاً جديدة ، وتوجهه الى البحث عن المثل العليا ، ولا يمكن أن يستغني عنها من أراد الفلسفة الكاملة التي هي « الحكمة » : « ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً »

نعم أجمعوا على أن مدرسة الاسكندرية وهي (الافلاطونية الحديثة) كانت آخر مصباح شع نوره على العقلية البشرية ثم خبا فجمد بخبوه الذهن الانساني جموداً طال مداه اكثر من اثنى عشر قرناً ، أي من القرن الرابع الميلادي الى نهوض - ديكارت - و - باكون - في القرن السابع عشر ، واعتذر عنهم بعض الشرقيين بأنهم عنوا عدم الابداع والابتكار في الدور الاسلامي لأن الفلسفة الاسلامية لا تزيد على انها نظريات يونانية بحتة .

ومنشأ هذه الاوهام هو جهلهم بالفلسفة الاسلامية وبكيفية نشئها وارتقائها ، وغفلتهم عن أن الدور الاسلامي من أهم أدوار الفلسفة والتفكير البشري ، ولم يكن انتاج هذا الدور منحصراً في إحياء بعض النظريات القديمة ، بل كان عهد إبتكار النظريات الجديدة القيمة باعتراف الغربيين .

وهل يتصور ابتكار او إبداع أعظم مما صدر من فيلسوف الاسلام ومجدد الفلسفة - الخواجة نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي - في القرن الثالث عشر الميلادي ، من نقضه القاعدة اليونانية القديمة وهي - الواحد لا يصدر منه إلا الواحد - التي

كانت آية ثابتة فى الفلسفة اليونانية ، وقاعدة مسلمة في جميع أدوار الفلسفة الى عصره ، وكانت مبتنية عليها اسس - الهيئة القديمة - والمباحث الفلسفية الكثيرة ، كمباحث العقول العشرة وما يتبعها ، التي ضخمت بها الاساطير ، واتسع فيها نطاق الكتب الفلسفية والرياضية ، فانهار بنقضها اساس الهيئة القديمة قبل ولادة - كوبيرنيك - وجاليليه - بعدة قرون ، وأعجب ما في الأمر ان - الفيلسوف الطوسي - إتخذ من ملاك برهان اثبات القاعدة المذكورة دليلا على نقضها .

وأعظم من ذلك ان مجدد الفلسفة الاسلامية [نصير الدين الطوسي] في القرن الثالث عشر الميلادي برهن على (أن الاجسام متحركة نسبياً) واعتبر هذه القضية صحيحة وبسيطة .

ثم أصبحت هذه القضية مبدأ النظرية النسبية التي انتجتها عدة تجارب قام بها العلماء في القرون الأخيرة لغرض الوصول الى غاية تستهدف قياس السرعة المطلقة .

وكان اهمها تجربة - ميكلسن - و - مورلي - سنة ١٨٨٧ ميلادية التي سببت ظهور النظرية النسبية المنسوبة الى - الدكتور البرت أنشتاين - لأنه قام بتفسيرها وتعليلها في القرن الحاضر ، واندهشت الاوساط العلمية في انحاء العالم من مفاجئتها ، لانها تستدعي قلب التصورات القديمة للزمان والفضاء والمسافة والمادة واستبدالها بتصورات أخرى غريبة

جداً ، كتصور الحد الرابع ؛ وانحناء الخطوط العالمية ، كما تستدعي قلب أصول اقليدس الهندسية ، ومبادىء فلاسفة اليونان الفلسفية والمنطقية ، وقوانين « نيوتن » الميكانيكية

ونحن في مؤلفاتنا الفلسفية وخطبنا إستعرضنا ادلتها وانتقدناها نقداً علمياً دقيقاً ، وأوضحنا ان شوط الفيثاغوريين في هذه النظرية كان أوسع من أشواط ـ ميكلسن و ـ أنيشتاين ـ لاعتبارهم النسبة صفة لازمة لجميع الموجودات ، بل جعلوها جوهر الكون وقالوا : « النسبة نظام الكون الشامل » والمعيار في هذا النظام ، اعتبار ابعاد متساوية ووحدات قياسية .

ولا يخفى أن هذه النظرية الفيثاغورية مغالطة نشأت من عدم التمييز بين وحدة الحساب ووحدة الهندسة .

وهل يوجد ابتكار أبدع من نظرية ـ الحركة الجوهرية ـ التي هي أساس مبدأ التحول والتطور وناموس النشوء والارتقاء بأصح المعاني ، وقد اكتشفها وأثبتها ـ صدر فلاسفة الاسلام : محمد ابن ابراهيم في القرن السادس عشر الميلادي وقررها على أساس برهاني متين واثقاً من أنها حقيقة راهنة كاتخذ منها برهاناً على إثبات الصانع ودليلا على حدوث العالم ، وكان ذلك قبل ثلاثمائة سنة من ولادة ـ داروين ـ في سنة ١٨٠٩ ميلادية ، وزملائه الذين نسبت اليهم هذه النظرية التي فسروها بمعنى محدود قاصر لا يساعده برهان ، ولا تدعمه

تجربة صحيحة ، فاتخذ منها - شبلي شميل - وأتباعه سبيلا إلى الالحاد وانكار الصانع لأنهم لم يصلوا إلى حقيقتها الصحيحة البرهانية .

هـذا مضافا إلى ان جماعة من فلاسفة العرب المسلمين أمثال - ابن مسكويه - وابن خلدون - و - أصحاب اخوان الصفاء - سبقتهم إلى القول بنظرية التطور بالمعنى الصحيح ولذلك قال الاستاذ - دريبر - الامريكي في كتابه - المنازعة بين العلم والدين - إن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً ، كان يدرس في مدارس العرب المسلمين وقد كانوا ذهبوا منه الى مدى أبعد مما وصلنا اليه ، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن ايضا . اهـ

ثم كيف يجوز إغضاء مؤرخ الفلسفة عن الدور الاسلامي و قد نبغ فيه المعلم الثاني - أبو نصر الفارابي - كما نبغ المعلم الثاني - ارسطاطاليس - في الدور اليوناني ، ولقد ألف الفارابي ، مائة وثمانية وعشرين كتابا في الفلسفة وسائر العلوم على اسلوب تفهيم المعاني الجزلة بالالفاظ السهلة - أحدها - كتاب - التعليم الثاني - الذي لخص فيه تراجم الفلسفة اليونانية وهذبها تهذيبا جعلها منتجة ، وصار كتابه - احصاء العلوم والتعريف بأغراضها - أساسا لوضع - دوائر المعارف - في العالم

وكيف يرمي الفلسفة الاسلامية بأنها نظريات يونانية ، وقد سمعت آنفاً تصريحات رئيس الفلاسفة « ابي علي الحسين

ابن عبد الله الشهير بأبن سينا » في الحكمة المشرقية وغيرها .

واعتقد المدققون بأنه يظهر جلياً للمدقق في فلسفة « ديكارت » وفلسفة « ابن سينا » والعاوف بالمقارنة بينهما ان ديكارت وضع فلسفته على اساس ابن سينا ، وأيد المنصفون من علماء الغرب هذه العقيدة أمثال « بروفسور فورلاني » و « گيوم دوورني » .

فمن الغريب أن تاريخ الفلسفة إحتفى بالفيلسوف « ديكارت » إحتفاء عظيما وسجله زعيم النهضة الحديثة وأباها ، .

ولكنه اعتبر الرئيس « ابن سينا » واحداً من فلاسفة القرون الوسطى (اسكولاستيك) ولو كان التاريخ يستطيع ان يجرد نفسه من الأغراض الخاصة ، ثم يقارن بين فلسفتيهما مبتعداً عن العواطف لما كان يسجل ذلك الحكم الجائر ونحن نعترف بأن ديكارت أول فيلسوف غربي أرشد الى وجود النواقص في فلسفة ارسطاليس ، ووفر أنتاج الفلسفة القديمة وأزال الخصام الحادث بين الفلسفه والعلوم الحديثه منذ القرن الخامس عشر الى عصره ، مضافاً الى أنه مؤسس الهندسة التحليلية وصاحب الاكتشافات القيمة في الرياضيات والطبيعيات وبه إهتدى الغرب الى الفلسفة الحديثه ، الى غير ذلك من أوصافه وخصاله التي تؤهله لأن يعظمه تاريخ الفلسفة ولكننا نجد هذه الخصال والأوصاف موجودة في الرئيس « ابن سينا » فهو

أول فيلسوف شرقي واسلامي بادر الى محاكمة ارسطاطاليس واليونانيين ، وأظهر النواقص في فلسفتهم ، وعمل على خلق معارف جديدة ونظريات مبتكرة يرجع إليها الفضل في جعل الفلسفة منتجة ، ووضع فلسفة اسلامية قبل ان يولد ديكارت بقرون كثيرة ، مع ان ابن سينا كان في القرن العاشر الميلادي وفي بحبوحة عظمة ارسطاطاليس وقوة اتباعه اليونانيين ، وكان عصره عصر الجمود والتقليد والتعصب للقديم وفقدان وسائل الأكتشاف ، فكان من حق التاريخ أن يعظم [الرئيس ابن سينا] مثل تعظيمه [ديكارت] وأن يقدر آثار الرئيس أكثر من تقديره لآثار ديكارت ، لأن ديكارت ظهر في القرن السابع عشر الميلادي وكانت رغبة اهل عصره الى التجدد والنهوض بالغة أقصى درجاتها ، وكانت العلوم ووسائل الأكتشاف متوفرة فيه ، .

وأعجب من صنيع التاريخ الغربي نقد الغزالي ، وابن رشد ، والسهروردي لبعض اراء إبن سينا الفلسفية وعناية صدر الفلاسفة المتألهين الفائقة باستقصاء الأستدراكلآراء الرئيس في مباحث الوجود وفي امكان الحركة في مقولة الجوهر ، وفي المثل الأفلاطونية وكثير من امثالها الموجودة في كتب ألفها ابن سينا للعامين حسب تصريحاته ، ولقد فاتهم جميعاً أنه ليس من العدل أن نجشم فلسفة ابن سينا أن ترتصد — بظهر الغيب — لأصابة كلما عسى أن يجد من التجارب والأفكار بعد ألف عام ، .

المطلب الثانى :

الأدب الأعلى

والغموض في فلسفة ابن سينا

عني ابن سينا بالأدب العربي ، وبذل عنايته الفائقة فى سبيل دراسة موسوعات اللغة على أثر حادث اعتراض اللغوي ابي منصور الجبائى عليه فى مجلس الأمير حتى امتاز في بلاغة البيان ، والتفنن في توشية طراز البلاغة ، فكان كلامه قولا بليغا مستحكم الصياغة فى أبدع تصوير ، واندمجت فيه الدقة مع الجلالة ، لأن شدة نفسه وقوة روحه وغزارة علمه وفلسفته وحكمته رفعت بدرجة بيانه إلى ما تتقطع دونه علائق الاقلام ؛ فصور أدق معضلات الفلسفة بأحسن تعبير كان اقصى المستطاع في عصره ، ولكنه أحاط تلك المعضلات بسياج من طلاسم الرموز ، لاعتقاده بأن عرض قوانين الفلسفة على من لم يرزق قوة بصيرة وزيادة استعداد وجودة قريحة ومزيد تجريد للعقل وتمييز للذهن وتصفية للفكر وتدقيق للنظر وانقطاع عن الشوائب الحسية والاهواء العاطفية وانفصال عن الوساوس العادية ، لا يجدي له الا زيادة غباوة

وحسرانا مبينا ، فلا بد أن تضن عليه كل الضن ، وهذه الضنة محمودة ، فلا غرو أن ينظر جمهور المتعلمين الى هذه الفلسفة نظرهم الى شيء عسير الفهم بعيد الغور ، يكد الذهن ويستنفذ المجهود بلا إنتاج لأن معلوماتهم لا تزيد على مجرد معرفة اللغة العربية أو بعض قواعد العلوم ، أمثال ناشر - منطق المشرقيين - حيث قال ما هذا نصه :

ان فلسفة ابن سينا تكاد تكون لاهوتية ، مثال ذلك ، انه يقول في تأييد رأيه بضرورة كون العالم حادثا ان الموجودات كلها ما سوى الله ممكنة الوجود بالطبع وتكون واجبة الوجود بفعل المبدع الأول ، وبتعبير آخر ان ممكن الوجود قد يكون واجب الوجود - انتهى كلامه -

ومقصوده من كلمة لاهوتية ان فلسفة ابن سينا لا يصدقها العقل ، ودليله على ذلك ان ابن سينا يرى ضرورة حدوث العالم ودليله على ذلك ان ممكن الوجود قد يكون واجب الوجود ، وهذا تناقض محال عند العقل ولا يعرف العقل صلة هذا الدليل بحدوث العالم .

كانظر الى هذا العربي المصري الذي لم يتوفق لمعرفة مراد ابن سينا من عبارته الواضحة ، وفي هذه المسئلة البدهية الابتدائية ولم يعرف ان الفلاسفة اتفقت كلمتهم على ان العقل اذا لاحظ الموجود من حيث انه ممكن لا يقتضي وجوداً ولا عدما ،

ويتساوى وجوده وعدمه لعدم معقولية الأولوية الذاتية وعدم كفاية الأولوية الخارجية ، طلب لا محالة مرجحاً يجب به وجود الممكن ، لجزم العقل بضرورة بطلان ترجح أحد المتساويين بدون مرجح ، ولذلك أجمعوا على أن الممكن بالذات مالم يجب وجوده عن العلة لا يوجد ، وإسم هذا الوجوب « الوجوب السابق » لسبقه على وجود الممكن ، ثم أنهم للممكن الموجود وجوبا بعد حصول الوجود وإسمه « الوجوب اللاحق » وهو الوجوب بشرط المحمول ، ولذلك قالوا : الممكن الموجود محفوف بوجوبين بالغير مع إمكانه بالذات ، فالعالم « أي الموجودات ما سوى الله » ممكنة الوجود وإنما ترجح وجودها على عدمها بإيجاب المبدع الأول ، فوجبت وجودها بفعل المبدع الأول فوجدت ، وهذا معنى الحدوث الذاتي الذي رأى إبن سينا ضرورة ثبوته للعالم .

المطلب الثالث :

[المثل الأعلى]

للعالم

الشيخ الرئيس (ابو علي الحسين ابن عبد الله ابن الحسن ابن علي ابن سينا) الذي كان هو المعول عليه شرقاً وغرباً في قواعد الحكمة والفلسفة والطب وسائر العلوم ، وقد إعترف له الجميع بالفضل والعظمة ، فأفتخر به الشرق وأخذ عنه ، ومدحه الغرب وانتفع بتصانيفه ، لم يسلك تلك الطريقة الخاطئة في العزلة والانزواء والصدوف عن الاهتمام بالشؤون الاجتماعية والدنيوية العامة ، الى جانب الشؤون العلمية والدينية ، لعلمه بأنه يتنافى مع روح الاسلام الذي هو دين السعادة المزدوجة في الدنيا والآخرة ، ومع السنن النبوية [ص] التي إتبعها أئمة المسلمين ، ورجال الاسلام الاولون ، بل تولى أرفع المناصب في الدولة الاسلاميه ، وكانت له جولات معروفة في ميادين السياسة والحرب والأدارة ، ولم يكن العلم ليمنعه عن الأنصراف الى العمل المتصل مباشرة بالحياة ، ولم يكن الدين والانعكاف على طلبه ليحول بينه وبين الاهتمام بالشؤون الدنيوية

الاجتماعية ، ولم يمنعه تقلد المنصب الرفيع فى الدولة عن قيامه بوظايفه العلمية والدينية ، فترك للعالم أعظم تراث علمي من مؤلفاته وكتبه التي ألفها لعامة الناس وضمنها علومه المطابقة لآراء ارسطاطاليس والفارابي ، الى جانب مؤلفاته الممتازة التي ألفها للخواص واودع فيها مبتكرات آرائه الخالدة فى العلم الحق والفلسفة الاسلامية ، وبهذا أصبح مثلا أعلى للعالم ، ومن حق التاريخ ان يسجل إسمه بأحرف النور والخلود ، .

وإقتفى أثره مجدد الفلسفة (نصير الدين الطوسي) الوزير الخطير ، وصاحب المؤلفات التاريخية في الفلسفة والعلوم ، وآية الله } العلامة الحلي جمال الدين حسن ابن يوسف ابن المطهر { صاحب المؤلفات الكثيرة فى مختلف العلوم العقلية والنقلية ، والآثار الخالدة ، والاعمال الجبارة التاريخية التي لا تزال تشع وتلمع انوارها في افق الاصلاح الديني ، وصاحب المقام الرفيع في بلاط الملك * أولجايتو محمد خدابنده *

وإن تلك العصور الذهبية الاسلامية التي كان يضطلع فيها العلماء الاعلام والفلاسفة العظام بأكبر المسؤليات والمناصب قد تركت لنا تراثاً من البحوث العلمية والفلسفية والدينية والمؤلفات الثمينة لم نجد اثراً لشيء ضئيل منها في العصور التي إعتزل فيها علماء المسلمين الشئون الدنيوية الاجتماعية وإنزووا بين جدران التكايا وفى حجرات المدارس والمساجد .

ولو إلتمسنا السبب في هذا الجمود الذي استحوذ على العلماء فأنساهم المهمة التي إنتدبهم الأسلام لها ؛ والواجب العظيم الذي ألقاه إليهم العلم الذي ينسبون إليه ، لما رأينا ذلك السبب الا كامنا في نفوسهم ، فهم الذين رضوا بالمكانة التي وضعوا أنفسهم فيها ، وتركوا المكانة التي عينها لهم الدين والعلم : فكانوا في ذلك الجمود ملومين من جانب الله ، ومن جانب المجتمع الأسلامي بل الأنساني ؛ ومن جانب انفسهم ، .

المطلب الرابع :

المنقذ الأعظم

أوجدت الفلسفة الحديثة والعلوم المادية زعما يجوز تسلسل العلل والمعلولات في عالم الوجود لا إلى نهاية ، بحجة أن البراهين العشرة التي أقيمت في الفلسفتين ، اليونانية ، والاسلامية ، على إمتناع التسلسل وبطلانه مبتنية على أسس وهمية وأصول نظرية محضة لم تدعمها تجربة ولا حس فهي كلها غير صحيحة

ولم يكن هذا موضوعاً فلسفياً فحسب ، بل كان يستلزم سد باب اثبات الصانع بدليل لزوم الدور الباطل بالضرورة او التسلسل المستحيل بالبراهين لولم يكن صانع للعالم .

وكأن الرئيس ابن سينا قبل ألف سنة أدرك هذا الحادث ، فقرر « برهان الوسط والطرف » على امتناع التسلسل وإبتناه على مقدمة حسية بدهية لا يمكن إنكارها ، وهي « أن الوسط يمتنع وجوده بدون وجود طرفين » . فأنقذ به الفلسفة والدين من الانقراض .

وهذا البرهان الحسي الذي ذكره إبن سينا في آلهيات « الشفاء » إرتضاه جميع الفلاسفة بالقبول ، ووصفه صدر الفلاسفة في كتابه ـ الاسفار الاربعة ـ بأنه أسد البراهين في هذا الباب

قال الشيخ الرئيس في تنظيم برهان الوسط والطرف مانصه :

« إذا فرضنا معلولا وفرضنا له علة ولعلته علة فليس يمكن

أن يكون لكل علة علة بغير نهاية ، لأن المعلول ، وعلته ، وعلة علته إذا اعتبرت جملتها في القياس الذي لبعضها إلى بعض ، كانت علة العلة علة أولى مطلقة الأخريين ، وكان الأخريين نسبة المعلولية إليها وإن إختلفا في أن أحدهما معلول بالواسطة والآخر معلول بلا واسطة ، ولم يكونا كذلك لا الاخير ولا المتوسط ، لأن المتوسط الذي هو العلة المماسة المعلول علة لشيء واحد فقط ، والمعلول ليس علة لشيء ، ولكل واحد من الثلاثة خاصية ؛ فكانت خاصية الطرف المعلول أنه ليس علة لشيء ؛ وخاصية الطرف الآخر أنه علة للكل غيره ، وخاصية الوسط أنه علة لطرف ومعلول لطرف ؛ سواء كان الوسط واحداً أو فوق واحد ، وان كان فوق واحد فسواء ترتب ترتيباً متناهياً أو غير متناه ، فانه إن ترتب كثرة متناهية كانت جملة عدد ما بين الطرفين كواسطة واحدة يشترك في خاصية الواسطة بالقياس إلى الطرفين ، فيكون لكل من الطرفين خاصية ، وكذلك إن ترتب في كثرة غير متناهية فلم يحصل الطرف ؛ كان جميع الغير المتناهي في خاصية الواسطة ؛ لأنك أي جملة أخذت كان علة لوجود المعلول الأخير وكانت معلولة إذ كل واحد منها معلول والجملة متعلقة الوجود بها ، ومتعلقة الوجود بالمعلول معلول ؛ إلا أن تلك الجملة شرط في وجود المعلول الاخير وعلة له ، وكلما زدت في الحصر والاخذ كان الحكم الى غير النهاية باقياً ، فليس يجوز ان يكون جملة علل موجودة وليس فيها علة غير معلولة ، وعلة اولى ، فان جميع غير المتناهي كواسطة بلا طرف ، وهذا محال ـ انتهت عبارة الشفاء ـ

ويلزم التنبيه في هذا المقام على أن البحث في الفلسفة الاسلامية على غرار البحث في الفلسفة اليونانية وغيرها يكون جاريا على قانون العقل سواء وافق الأسلام وساير الأديان الألهية او خالفها ؛ ولأجل ذلك سجلت جميع المذاهب الالحادية التي تناقض الدين فى صميمه ، ولكن البحث في علم الكلام مقيد بأن يكون جاريا على قانون الاسلام ؛ وهذا القيد أخرج الأدلة الكلامية من البرهان إلى الجدل ؛ نعم قد يستفيد الدين من مقررات الفلسفة فائدة لم تكن مقصودة للباحث الفلسفى ؛ فلقد استفاد الدين والاسلام من إبطال التسلسل ببرهان الوسط والطرف المار الذكر ؛ ولكنها لم تكن داخلة في الغرض المقصود لأبن سينا فى بحثه الفلسفى ، وبهذا التنبيه الموجز يزول كثير من اعتراضات المستشرقين على الفلاسفة من المسلمين وغيرهم مثال ذلك : أن الأستاذ ـ البارون كارادي فو ـ الذي هو من كبار المستشرقين الفرنسيين وسطع إسمه بين المستشرقين فى أوائل هذا القرن بسبب مؤلفاته في الفلسفة الاسلامية التي كانت ولا تزال ذات شأن عظيم فى البيئات العلمية ؛ وآرائه التي أتخذت بمثابة دحض آراء ـ رينان ـ الباطلة فى شأن الأسلام والمسلمين ؛ قال :

ليس القرآن كتابا فلسفياً ؛ وليس محمد { ص } فيلسوفا بالمعنى الفني لهذه الكلمة ؛ ولكنه إلتقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فمنحها حلولا إلهامية مصوغة في أسلوب ادبي ؛ ومجموعة هذه الحلول هى التي كونت ـ العقيدة الاسلامية ـ وهى صارت فيما بعد نقطاً محددة في النظر الفلسفي عند العرب ، وإذاً فلم تكن المشكلة العامة عند العرب هي البحث عن الحقيقة مادام أن هذه

الحقيقية قدمت اليهم في عدة من هذه النقط الجوهرية ؛ وانما كانت هي التدليل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقيقة التي بسطت بطريقة الهامية ؛ واستبدال الصورة الأدبية التي صيغت فيها بصورة تتفق مع مناهج الفلسفة القديمة ، وذلك هو ما يمكن أن يطلق عليه إسم - المشكلة المذهبية - انتهى كلامه .

وهذه المغالطة من الاستاذ - كارادي فو - نشأت من اشتباه الفائدة بالغرض المقصود ؛ وماذكره من الوصف انما ينطبق على علم الكلام والنظر الكلامي لا على الفلسفة الاسلامية ونظريات فلاسفة الاسلام والعرب ؛ ولا ريب في ان اعتراضات المستشرقين واردة على ما فهموه من الفلسفة الاسلامية لا على آراء فلاسفة الاسلام والعرب .

ولنقيض القضية التي ذكرها ابن سينا وهي - وجوب تحقق الوسط بعد وجود الطرفين - فوائد لا تحصى في مبحث المقارنة بين الأديان الالهية وموازنة بعضها مع بعض لا يسع المقام ببيانها

ولا أقصد بذلك الاستغناء عن الفلسفة الحديثة ؛ كلا ؛ فان كلا من الفلسفتين قوة عقلية جاهزة وعدة فكرية ناهضة يجب إستغلالهما ولا يجوز الاستغناء عن كل منهما .

بل يجب أن نضم نفائس - الفلسفة الحديثة الى - حقائق الفلسفة الاسلامية - على ضوء العقل والروية لنستخلص منهما مزيجا اصلاحيا خالصاً وفلسفة قويمة صالحة للحياة والبقاء وكذلك أراد الله ان تكون الحياة دائماً مزيجاً من صالح القديم والحديث ولن تجد لسنة الله تبديلا . والحمد لله اولا وآخراً .

(انتهى إملاء الامام الزنجاني)